روائع النص الخفي – قراءة في نصوص مختارة من الشعر الليبي

فادية محمد عبدالسلام
جامعة الزيتونة

تاريخ الاستلام 2023/12/04

ملخص البحث

يعد الأدب بمختلف أجناسه وأنواعه وسيلة الأديب للتعبير عمّا يشعر به من أحاسيس ومشاعر ومرآة لحياته الداخلية، فنرى من خلالها آلام الشاعر وأحزانه، وسعادته وأفراحه، وتعابيره الظاهرة والخفية.

لقد وقع اختيارنا على مجموعة من النصوص من الشعر الليبي ، وقد تنوعت قضايا النص الخفي وتناولت موضوعات شتى، فتحدثت عن الجوع والفقر والحياة والموت والحزن والألم والجور والظلم وقد قسمت قضايا هذه النصوص الموضوعية إلى جانبين:

المطلب الأول: قضايا النص الخفي السياسية.

المطلب الثاني: قضايا النص الخفي الاجتماعية.

و التي رأينا أن أصحابها استخدموا التعبير غير المباشر للتعبير عن مقاصدهم وأهدافهم، ولأسباب مختلفة علّهم بذلك، يدفعون ظلماً، أو يوقظون شعبا، أو يزرعون أملاً، وقد استخدمت المنهج التحليلي؛ لأن هذا الأسلوب من التعبير يعتمد على الازدواجية في التعبير فيرفض المعنى الظاهر ويقبل الباطن وهو هدف الشاعر ومقصده.

عبّر الشعراء بهذا الأسلوب عن مختلف القضايا؛ لكنّ اهتمامهم انصب على القضايا السياسية، والاجتماعية، فقد أرّقت مضجعهم، وأدمت قلوبهم، ونالت منهم الشيء الكثير؛ لذلك نجد الشعراء

عبروا عنها ببراعة، حتى أنهم تجاوزوا قضايا بلدانهم إلى قضايا أمتهم، ولم يكن ذلك إلا لخدمة الأمة والسير بها إلى الأمام، حيث الحياة الكريمة، حياة بعيدة كل البعد عن حياة الذل.

وقد ساعد هذا الأسلوب إلى حد كبير التعبير عمّا يريده الشاعر، حتى في المواقف الصعبة التي تصعب على الشاعر البوح بها.

وقد تناولنا في هذا البحث مجموعة من الشعراء الليبيين ذاك أنّا هذا الاقتصار على شاعر واحد أو اثنين يخدم موضوع البحث كذلك أن هذا الأسلوب لا يستخدمه إلا الشاعر المتمرس القادر على إيصال هفه بطريقة ذكية خاصة في القضايا السياسية والاجتماعية.

المقدمة

ظل الأدب الحي قاطبة بنوعيه وبمختلف أجناسه من شعر ورواية وقصة وحكم وأمثال، يعبر عن قضايا الإنسان المختلفة، يرفض السلب ويقبل الإيجاب، دامجاً رفضه بعلو صوته، فكان مرآة صادقة لواقع البيئة التي يعبر عنها. (**خالد سليمان، 1991، 1**)

إذ يعرض الأديب كل المشكلات التي يواجهها المجتمع بطرق عدة، فيلجأ أحيانا إلى استخدام الأسلوب المباشر في عرض أفكاره، وأحيانا أخرى يستخدم طرق ملتوية لخدمة المعنى الخفي حينما يتعذر استخدام المباشرة في الكلام.

ولعلنا نجد اهتمام الشاعر في معظم إبداعاته بالتراكيب الفنية واللغوية للنص، حيث امتلك دائما القدرة على المغامرة، والتوغل في مناطق غير مأهولة، لم يتطرق إليها أحد من قبل ومن هنا نرى تميز الشعراء وتفردهم عن غيرهم، كما أنه كان في حالة اختبار مستمر للأدوات والمفردات، وإذا نظرت إلى عدد المفردات الجديدة التي استخدامها، فسوف تدهش لمدى سعة معرفته بغرائب المفردات التي استقاها واشتقها أو نحتها، وبرع في استخدامها وإحيائها في صياغات جديدة متفردة.

ولعل الإنجاز الأكثر أهمية في التركيب عند الشاعر، يكمن في معرفته الحدسية والعميقة بأسرار النص، وإدراكه المستمر لتلك الأبعاد المتعددة التي يختزنها النص الشعري، ومن هذا يظهر بوضوح ما يمكن تسميته بقيمة "النص الخفي" ودوره في تشكيل بنية العمل الفني لديه، فالكثير من النصوص الظاهرة لها نص خفي، والنص الخفي يعد بمثابة المياه الجوفية للنص لكننا لا يمكن أن نراه، لكننا نلمح آثاره واضحة على هيئة ما ينتجه من صور تتميز بالحيوية والحياة والجمال، كما يمكن تمثيله بالعلاقة بين الجذر والزهرة فكلما امتد الجذر عميقا، ازدادت الزهرة تألقاً وجمالًا، وكذلك فإن النص الخفي يتشكل من مجموعة التراكيب اللغوية والخبرات الفنية والأبنية النغمية، والطاقات اللغوية، بالإضافة إلى موهبة الشاعر، وقدرته على المغامرة والتجريب وتوظيف الأدوات الفنية والجمالية التي بدورها تخدم هدف الناس.

والنص الخفي هو الذي يدفع بعصير الحياة إلى عروق النص الظاهر، وهو الذي يشكل المستويات الداخلية للنص، ويعمل على شحنها بمختلف الطاقات، وهو الذي يضيف من رحيقه إلى مستويات النص الخارجي، ويمنحه القدرة على التأثير والاستمرار.

وفي معظم قصائد الشعراء يمكن أن نلمح أثارا قوية لتأثير مثل هذا النص الخفي، وقدرته الهائلة على إغناء العمل الفني والدفع به خطوات إلى الأمام، ليصبح في النهاية بمثابة المحرك الأساسي والجوهري، الذي يعمل- في العمق- على منح العمل الإبداعي شرعيته الفنية ،وقدرته على الاستمرار والبقاء لأزمان عديدة قادمة، تتجاوز الفترة المحدودة التي تم كتابة القصيدة فيها، ليصبح العمل الفني صالحا لكل زمان ومكان.

ولعل فكرة النص الخفي، يمكن أن تلقى الضوء ،كما توضح إلى حد كبير الأهمية الاستثنائية لذلك النص في شحن العمل الإبداعي بتلك الطاقات الهائلة التي تميزه، عن غيره من الأعمال

الأخرى محدودة القيمة والتأثير، كما يلعب (النص الخفي) الدور الأهم في بلورة مفاهيم التجديد والمغامرة واختبار الأدوات الفنية عبر المستويات الداخلية والخارجية للقصيدة (**محمد كاشيك،12،2010-13**).

لذلك كان يمكن أن نلمح بسهولة في معظم قصائد الشعراء الذين يتجنبون المباشرة في الحديث المستمر- الظاهر والخفي- بين كل تلك الثنائيات المتعارضة والمتناقضة في آن، والتي تعمل على إضفاء أجواء الحركة والحيوية إلى جوهر النص الشعري، كما تمنحه القدرة على التجدد التلقائي بما يمنحنا ذلك الثراء النغمي الذي يستوعب جميع المستويات الداخلية والخارجية، ويجعله في حالة دائمة من التجدد والتنامي، والتوالد، كما يكسبه الحيوية والقدرة على إنتاج باستمرار، ودائما ما تشتبك في العمق تلك الإيقاعات التي تعكس ذلك الصراع (**محمد كاشيك،2010 ،22 /23**)

وقد تكشف كل هذه الصراعات عن نفسها بيسر وسهولة، لتوضح على نحو فني بليغ ملامح تلك- الازدواجية- التي يعاني منها المجتمع، والتي تساهم بشكل كبير في وجود الطبقات هذه الطبقات التي يدفع ثمنها البؤساء، والتي تعد بمثابة العلة الحقيقة لجميع الأمراض الكامنة فيه، وهي ازدواجية ناشئة عن الاحتفاء بالظاهر، دون أدنى اهتمام بأثر العلاقات الداخلية، بحيث أصبح السطح الخارجي، بمثابة قشرة خادعة تخفى خواء العمق، لتبدو براقة على السطح بينما تفتقر إلى جذور حقيقة تمتد في باطن الأرض، من مياه داخلية عميقة تشكل أساس الفعل الإنساني، الذي لا تزيفه الرتوش ولا تواريه الأقنعة وهي ازدواجية، تهتم بالشعارات البراقة، دون أن تحفل بالمضمون الحقيقي للتيار المنفعل الذي يحرك العلاقات المجتمعية والإنسانية، كما أنه صراع دائم ومستمر، يشير إلى منهجية الشاعر في التعامل مع الكتابة الإبداعية، بحيث ينفذ بعمق وسهولة إلى المستوى

الأعمق للنص، بالتقدم خطوات ناحية الفعل الشعري عبر مستويات من التعامل الفني، ليعكس ملامح الأزمة العامة للمجتمع في تجلياتها المختلفة والمتنوعة، كما يكشف أيضا عن جوهر الخلل الكامن في بنية العلاقات الإنسانية(**محمد كاشيك ،2010، 23/ 24**)

وقد عُرف هذا الأسلوب في الأدب العربي منذ القدم ومازال مستمرًا إلى يومنا هذا ،فقد استخدمه القدماء للتعبير عن مقاصدهم ، لكن طريقة استخدامه اختلفت من شاعر لآخر وهذا يعني أن له طرق شتى وأساليب متعددة انحصرت في مفاهيم معينة شملتها البلاغة العربية كالتورية والتعريض والمدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف هزا يراد به الجد وغيرها من المفاهيم التي تناولها الأدباء القدامى، ومن الأمثلة على ذلك قول نصر بن سيَار في شحذ عزائم بني أمية وحثهم لإدراك الثأر والانتقام من خصومهم العباسيين وقد بعث الشاعر هذه الأبيات إلى هشام بن عبد الملك يحذره من خطر العباسيين، يقول:

أرى خلل الرماد وميض جمر

ويوشك أن يكون له ضرام

فإن النار بالزندين توري

وإن الحرب أولها كلام

أقول من التعجب: ليت شعري

أأيقاظ أمية أم نيام؟

فإن هبَوا فذاك بقاء ملك

وإن رقدوا فإني لا أنام. (ديوان نصر بن سيّار،2011 ،46)

فالأبيات تحذير من الشاعر بخطر العباسيين على الأمويين، الشاعر لم يذكر هذا الخطر مباشرة وإنما ذكره من خلال التعريض.

إلا أن هذا الأسلوب تغير مع مرور الوقت شأنه شأن المفاهيم الأخرى، فقد أصبح المعنى الخفي أن يقول الشاعر لفظة لكنَه أراد معناها المخالف لها تماما وذلك كما في القصيدة (تنويمة الجياع) للشاعر محمد مهدي الجوهري الذي استخدم لفظة (نامي) في أغلب أبيات القصيدة.

الشاعر لم يريد المعنى المعجمي لهذه الكلمة وإنما أراد المعنى المضاد لها وهو الاستيقاظ والثورة ضد الأوضاع المؤلمة التي يمر بها أبناء شعبه.

غير أننا اقتصرنا في هذا البحث على النصوص الحديثة التي تعتمد على معنيين ظاهر وباطن دون أن تقتصر على معنى معين من المفاهيم القديمة ، أو بالأصح على الألفاظ التي تدل على معاني مغايرة لها تماما، والأدب العربي يكثر فيه مثل هذا الأسلوب، والأمثلة على ذلك عديدة يعج بها اللسان العربي وكتب الأدب بمختلف عصوره، ومن ذلك قول إبراهيم طوقان في مقطوعته الشعرية الرائعة، يخاطب فيها الانتداب البريطاني على فلسطين، مستخدما أسلوبه غير المباشر في التعبير عن مرماه ويقول:

قد شهدنا لكم بالعدالة وختمنا لجندكم بالبسالة

وعرفنا بكم صديقا وفياً كيف ننسى انتدابه واحتلاله

وخجلنا من لطفكم يوم قلتم ((وعد بلفور)) نافذ لا محالة

كل أفضالكم على الرأس والعين وليست في حاجة لدلالة

ولئن ساء حالنا فكفانا إنكم عندنا بأحسن حالة

(ديوان إبراهيم طوقان،82،1984)

فالناظر لهذه الأبيات لا يمكن أن يأخذ الكلام على معناه السطحي، ولا يمكن أن يقبل بالمعنى الظاهر للنص، لما عرف عن أخلاق العدو المغتصب، فقد أراد الشاعر من هذه المقطوعة عكس ما قاله، فالمغتصب ظالم وطاغي وخائن، الشاعر يستفهم ب(كيف) عن نسيان هذه الصفات؛ إذ إن السلبيات لا يمكن للمرء نسيانها، وذلك لشدة وقعها وقوة تأثيرها على متلقيها، ويستمر الشاعر في هذه المعاني التي مزجها بروح السخرية والاستهزاء جاعلا معانيها تدور حول المدح ولكن واقعها خلاف ذلك.

ويقول في مقطوعة أخرى يخاطب زعماء فلسطين في فترة الانتداب :

أنتم المخلصون للوطنية أنتم الحاملون عبء القضية

وبيان منكم يعادل جيشاً بمعدات زحفه الحربية

واجتماع منكم يرد علينا غابر المجد من فتوح أمية

وخلاص البلاد صار على الأبواب، جاءت أعياده الوردية

في يدينا بقية من بلاد فاستريحوا كي لا تطير البقية.

(ديوان إبراهيم طوقان ،1984 86)

فقارئ الأبيات يدرك أن ظاهرها يخالف باطنها، الشاعر ضاف درعاً من أبناء الوطن الخائنين والعملاء، فيصفهم بالخيانة حينما قال: (المخلصون)، وبالأنانية حينما قال: (أنتم الحاملون عبء القضية)، فأراد من هذه الجمل معناها الباطن وليس الظاهر، وهكذا يستمر الشاعر في فضح السلوكيات الخادعة مستخدما الخفاء وسيلة لذلك وتزداد الأمور حدة عند الشاعر فيرى أن هؤلاء الخونة سيكون خلاص البلاد على أيديهم بدليل الأعياد الوردية، هذا ظاهر النص لكن مقصد الشاعر غير ذلك، فالألفاظ (غابر المجد، فتوح أمية) دليل على دناءة أخلاقهم، وخيانة بني وطنهم

وخسة أصلهم، وأن هلاك البلاد سيكون على أيديهم لا خلاصها، كما جسد فعل الأمر (استريحوا) يأس الشاعر من هؤلاء الخونة الذين لا هم لهم إلا أنفسهم تاركين أبناء وطنهم تحت وطأة المحتل.

أولاً: قضايا النص الخفي السياسية:

لا تقل القضايا السياسية أهمية عن القضايا الاجتماعية بل هي الأساس الأول، فقد كانت محط أنظار الشعراء وعماد شعرهم؛ لذلك انصب اهتمامهم عليها.

إن الإنسان والحياة الإنسانية، هما موضوع الأدب. (عماد حاتم،1994، 148)

ولعل أهم القضايا لدى الإنسان وأشدها قسوةً ومعاناةً عنده هي القضايا السياسية فالاحتلال وما يخلفه من آلام ومعاناة نتيجة الجوع والفقر والظلم والفساد والدمار وغيرها من أمور سلبية فإنها تؤدي إلى الهوان وتقضي على حياة الناس.

ومن أمثلته في الأدب الليبي قصيدة غناء للشاعر مفتاح العماري أحد القصائد التي تناولت المعنى الخفي، تهكما وسخرية من الأوضاع التي يمر بها الناس أثناء الحروب، يقول:

الجنود يعبرون

يتركون خلفهم أعقاب السجائر والمواويل

مرّت بنا الواحات

ونحن نغني

مرّت بنا النجوع وقطعان الإبل

ونحن نغني

مرّ بنا أطفال بلون الجوع

أعطيناهم دقيقاً وسكر

ونحن نغني

وحين مرّ بنا في المساء العسكريون

غنت البنادق د (مفتاح العماري،76،1995)

الشاعر في قصيدته يتحدث عن الحرب وما تخلفه من ويلات ومعاناة تلحق بني البشر، فقد ذكر الجنود أساس الحرب، كما أماكن (كالواحة – النجوع)، دون أن يصرح بالمكان الأصلي التي وجدت فيه – الواحة – النجوع وهو الصحراء، وقد أكد على هذا المكان (الصحراء) قوله: (قطعان الإبل)، وكما نعلم أن الصحراء رمزٌ للفقر والابتعاد عن حياة الراحة. الحرب وأهوالها فرضت على أطفالها الجوع والرحيل، مروا مع أمهاتهم اللاتي صورهن الشاعر أجمل تصوير حينما قال (مرت أمهات بلون الحروب الطويلة، مرّ بنا أطفال بلون الجوع)، وقد دلّ هذا التصوير على مدى المكابدة والمعاناة والذعر الذي مررن به الأمهات جراء الحرب التي وسمّاها ب(الطويلة)، والأطفال الجوعى كما مرّ بالشاعر وصحبه الماء يسير مسرعا، والنخيل من خلفه، والنجوع، وقطعان الإبل، يشير الشاعر إلى هجرة جماعية حتى الثوابت فقد جسدها وجعلها في صورة الكائن الحي الذي ينتقل من مكان إلى لآخر، وفي ذلك التصوير ينقل لنا الشاعر هول المأساة وشدة وقع الحرب على كل ما يقع على الأرض، كل هذه الأشياء التي رآها الشاعر وصحبه، لا يمكن أن تجعله يغني (ونحن نغني) وإنما هي مبعث للألم والحزن والمأساة، فقد أراد الشاعر معناها الخفي وليس المعنى الظاهر وهو الغناء المعروف الذي يصحب أماكن الفرح والسرور، وإنما أراد السخرية والتهكم والحقد على الأوضاع التي يمر بها الشاعر، وقد أكد على هذا المعنى قوله: (غنت البنادق)، التي أسكنتهم وقطعت عليهم الحياة.

وقد كرر الشاعر هذه اللفظة أربع مرات خلال مقطع صغير ليؤكد على حنقه وسخطه على الواقع وقت الحرب.

وفي هذا الشأن يقول الشاعر محمد عياد المغبوب:

كلما وقفت

أمام المرآة

أرى جهازي الهضمي

يتقيأ

وعندما تكونين معي

أجده

يبتلع السم

لكنني لا أموت.

(محمد عياد المغبوب،59،2000)

الشاعر يقدم لنا صورة تعبيرية غريبة، لكن هذه الغرابة سرعان ما تتلاشى حينما تنكشف خفايا النص فمن غير الممكن أن يكون المرء واقفا امام المرآة ويرى جهازه الهضمي يتقيأ، وأن يبتلع اسم ولا يموت الشاعر في هذه القصيدة يتحدث عن تجربة شخصية، يبدو الشاعر يواجه مصاعب وضغوطات في حياته، جعلت من جهازه الهضمي يتقيأ وأن يعيش بعد أن يبتلع السم، الشاعر لم يقصد ظاهر الكلمة ولم يقصد معناها الحقيقي، وإنما السم المعروف لنا جميعا نعطيه لمن نريد قتله، لكنه أراد معنى آخر هو المعاناة والآلام التي يواجهها الشاعر، لكنها تهون وتسهل عندما يكون بجانب صاحبته والدليل قوله (لا أموت) وقد استخدم الشاعر الأفعال المضارعة الدالة على غرضه المعنى (يتقيأ – يبتلع – أموت)، لخدمة معنى القصيدة ولتوصيل ما بداخله للقارئ دون أن يستخدم التصريح وسيلة لذلك.

وفي تجربة محمد الشلطامي ((قصائد عن الفرح)) نقرأ عن المعنى الخفي:

أنت متهم بأنك كنت

تضحك

في الشارع الخلفي للأفق المسرج بالظلام

وكنت مبتهجاً

وتضحك

ويداك في جيبك

والفرح المصادر

في عيونك

باديا

كالخنجر المسموم

كالكتب المهربة الغريبة

ضبطتك شرطتنا الأمنية في الشوارع

ضاحكا

متلبسا بجريمة الضحك الذي

ينبي عن الفرح المفاجئ

والمصدر.....

(محمد الشلطامي،31،2002)

لقد استعان الشاعر بالشخصيات التخيلية التي تعبر عن عمق المأساة الإنسانية تمثلت بالأنا المجهولة من خلال الجناس بين الفعل المضارع(تضحك) الذي كرره مرتين والحال (ضاحكا) والمصدر (الضحك) فالقارئ فهذه الأبيات يرفض معناها الظاهر تماماً، ليغوص في أعماق النص يبحث عن معنى الشاعر الحقيقي وهدفه من استخدام الألفاظ في غير موضوعها، فليس من المعقول أن يقبل عقل القارئ بأن يصبح الضحك اتهاماً يحاسب عليه المرء، إن استخدام الشاعر للفظة الضحك بأحوالها الثلاثة – فعل، حال، مصدر – لم يكن اعتباطاً، وإنما أراد هدفاً كبيراً من ورائها هو رسم الوجه المتشائم ومأساة الإنسان العربي، ومعاناته تحت وقع الظلم والطغيان في زمن غاب فيه العدل وتفشي فيه الجور والظلم.

ومنها ما نجد في القصيدة ((من الحكام العرب إلى حنظلة)) للشاعر راشد زبير السنوسي:

نحن من حمل العبء من نصف قرن

نهز المنابر

نطلق في كل يوم

وعيداً يقارع فحلا

أنت لا شيء تفعله

غير أنك تعطي يظهرك للحلم

تنسى القضية

حتى غزاها المشيب

وصار الصبي المناضل كهلاً

نحن من عبأ الأفق

بالطائرات

وبالعبارات

وأطلق صوت المذيعين

ساق الأناشيد رتلا فرتلا.

(راشد الزبير السنوسي، 21،2008)

الشاعر في هذه الأبيات يتحدث عن الواقع العربي الراهن الذي أصبح دفاعه عن أرضه وعرضه كلام (نهز المنابر) بالخطب والأناشيد والشعارات التي لا فائدة ترجى من ورائها.

فالأفعال (حمل، نهز، نطلق، تعطي، تنسى، غزاها، سار، عبأ، أطلق، ساق) تضمنت معاني خفية لم يصرح بها الشاعر مباشرة وإنما استخدم أسلوب الخفاء، فقد أراد الشاعر معنى آخر من هذه الدوال، وهو العجز عن الفعل فالقول كثير والفعل لا يوجد.

وفي قصيدة ((الدوامة)) للشاعر راشد الزبير السنوسي تظهر المعاني الخفية، فقد جاءت في الأبيات التالية:

وانسربت بنو يهو

د أرقط وعقرب

ينتصرون للبسو

س كي تذل تغلب

وما هواهمو لبكر

بل هو التكسب.

(راشد الزبير السنوسي،124،2008)

الشاعر بهجو اليهود ويصف ما يتمتعون به من مكر وخداع في هذه الأبيات الثلاثة، الشاعر يعطينا صورتين لبني يهود؛ الأولى النصر لبكر، والثانية هزيمة تغلب.

بدايات الخفاء بدأت باستخدام الفعل (انسربت) الذي جاء بمعنى (الدخول) ؛ ليوضح دخولهم إلينا على هيئة (أرقط) و (عقرب)، يأتي بعد ذلك التصوير، إذ صورهم بالأرقط وهو الحيوان المفترس الذي لا يوثق به، والعقرب التي تدفع بسمها إلى الموت، وذلك تشبيه بليغ؛ حيث حذف الأداة ليبالغ في وصف وضاعتهم وحقارتهم، والتقدير (كالأرقط وكالعقرب) وقد أحسن الشاعر وأجاد في ذلك، فقد بين انطباعات تلك الفئة الفاسدة وما جبلت عليه من بث سمومها في الآخرين والعمل من أجل مصلحتها، ثم يأتي الشاعر بالفعلين المضارعين المتضادين (ينتصرون، تذل) فهم أرادوا النصر لبكر والذلة لتغلب، ثم يطالعنا البيت الثالث بالتغاير التركيبي بين البيتين؛ الذي أدى بدوره إلى تغير الناتج الدلالي، وليكشف عن حقيقة اليهود ويفتح النص على لأفق التضاد بين النصر والهزيمة، ويبين حقيقة أمرهم ألا وهو (التكسب)، على أن هذا الازدواج الدلالي قد آل التوافق في المستوى العميق، ليعبر الشاعر بمفارقته عن طبع الصهاينة (وما هموا لبكر بل و التكسب).

فالبيتان الأولان يوضحان الاهتمام ببكر؛ كي تنتصر، مقابل هزيمة تغلب.

لم يكن هدف اليهود النصر لبكر، وإنما أرادوا هدفا آخر، فهذه الرغبة ليست حقيقة؛ لأن البيت الثالث يكشف عن خبثهم ونواياهم الدنيئة، ألا وهو الكسب والربح.

وفي قصيدة الاستجواب نقف على هذا النوع الذي تمثل في قوله:

((نحن بخير نشكركم وتنفجر المرارة))

(راشد الزبير السنوسي،185،2008)

إن أول ما يثير القارئ التناقض الظاهر في العبارة، فالدال يحمل معنى مخالف للدال الثاني، وقد أدى كسر التوقع الجمع بين النقيضين في العبارة، مما كان للخيال أثر فيه وفي لملمة هذا الشتات الذي تجسده مشاعر الزبير، وفي ذلك ما يستوقف القارئ رفض الشاعر لما آل إليه مما لا ترضاه نفسه، وقد دفعه إلى تقديم الجملة الأسمية (نحن بخير) على الفلية (تنفجر المرارة) استهانة بالوضع الذي آل إليه حنظلة، فهو يرفض أن يكون على هذا الوضع. على أن قوله (نحن بخير) لم يقصد معناه الظاهر، وإلا لما لحقه بقوله (تنفجر المرارة)، إنها السخرية، الأسلوب العدائي المصبوغ بروح الفاكهة، وهي من لوازم الخفاء، إذ لا يمكن أن يكونوا بخير وفي ذات الوقت تنفجر المرارة.

ثانياً: قضايا النص الخفي الاجتماعية:

خلق الله الإنسان كائن اجتماعياً، وخُلق الأدب ليعبّر عن قضايا الإنسان المختلفة، وأي أدب لا يعبر عن حياة الإنسان بمختلف نواحيها وجوانبها فهو أدب غير مفيد وكما قال سيدني فنكلستين إن الموضوع الحقيقي للفن هو الإنسان. (سيدني فنكلستين،276،1981)

ويعد الشعر اقرب الأجناس الأدبية إلى الإنسان، ولعل القضايا الاجتماعية كانت أساس مهم كونها تمس جميع أفراد المجتمع، وأي خلل في القضايا الاجتماعية يترتب عليه خللاً في جوانب الحياة الأخرى ولما كان الأدب الوسيلة المؤثرة على مشاعر الإنسان، استخدمه الشاعر؛ كي يكون وسيلة للوصول لأهداف شتى وكما أن الأدب (عنصر فعّال لخدمة قضايا الإنسان) (محمد زكي،182،180)

ومن أمثلته في الأدب الليبي قول الشاعر على الفزاني :

أكل هذه المطر

ما أينعت للطفل حبة قمح !

جاريتي فلتعطني ثمالة من كأس

فإن وجه اليأس

يطل شاحبا، خذي عباءتي لهم

قولي بأن الذراري

جاعت على مشارف البراري

(ما بي مرض).(علي الفزاني،1983، 351)

ظاهر النص يدل على أن المطر لم تنبت حبات القمح، ولم تخضر الأرض، بل بقت على حالة الجذب والقحط والجفاف، وعلى هذا فأن الأرض لم يتغير حالها ولم تعد صالحة لحياة الإنسان ولا سائر الكائنات، فتمة أمرٌ غريب وشيء غير طبيعي حال بين المطر وإحياء الأرض، سينتهي الذهول حينما نعرف مقصد الشاعر الحقيقي، فقد أراد الشاعر من هذه الكلمات أن ثروة البلاد بيد المغتصب الذي حرم الجميع حتى الأطفال من أبسط حقوقهم، وقوتهم (حبة القمح)، الأمر الذي قلب الأمور رأساً على عقب،فقد صار الغريب صاحب الوطن، وصاحب الوطن غريباً، الأمر الذي أدى إلى فتح الطريق أما العدو (وجه اليأس)، لتحقيق أهدافه.

وقد أسهم في هذا النوع من الشعر الشاعر عبد المجيد القمودي صالح وهو يعبر عن معاناة الناس من الفقر وما يسببه من مشاكل اجتماعية لا حدود لها، يقول:

ويأتي الموظف ثانية بعد حين...

أنيق.. رشيق.. شموخ.. بدين..

نقبل كفيه في ذلة وخشوع

ونخجل أن بللت راحتيه الدموع

ونفرش خرق الحصير

ونهتف: "أهلا"..

"يباركك الله يا بن الحكومة"

"ونحن جميعا نحب الحكومة"

"وندعو لها بالبقاء".(**عبد المجيد القمودي،1982 ، 67**)

يستهل الشاعر قصيدته بتقديم وجهين متضادين، فنراه في الوجه الأول يصف (ابن الحكومة) أنيق، رشيق، شموخ، بدين، بينما يصف في الوجه المقابل الطبقة الكادحة (الشعب) وما يعانيه من حاجة ماسة لضروريات الحياة، حيث البقاء ومن جملة التضادين الطبقتين نلاحظ حياة الشعب وما يعانيه من بؤس وآلام لا تنتهي، حيث نرى صور الذل والإهانة بارزة بشكل جلى وواضح في النص، يجب على المواطن أن يفعل كل ما بوسعه ليستعطف الحكومة ويثبت حالة الفقر والعوز، لينال حاجته، وتقضي حوائجه فظاهر الأبيات. (نهتف: أهلاً، يباركك الله يا بن الحكومة، ونحن جميعا نحب الحكومة وندعو لها بالبقاء) لا تعني معناها السطحي وإنما أراد معناها الخفي العكسي فليس من العقل أن يرحب المرء بمن يحيه حياة الفقر، ويشعره بالذل والهوان، وقد وصلت الإهانة غايتها عندما قال (نقبّل كفيه في ذلة وخشوع، ونخجل إن بللت راحتيه الدموع) لقد حملت هذه الألفاظ بين طياتها هموم الإنسان، حيث القهر والبؤس والفقر والجوع وما تؤدي إليه هذه الأشياء من جعل حياة الإنسان حياة الجحيم وما تقتضيه من آلام ومتاعب تؤرق حياته وتنغص عيشه.

وللشاعر علي الخرم قصيدة تحمل عنوانا تخالف الواقع وهو ((الجوع في موسم الحصاد)):

فغلة الموسم قسمت بالعدل فيما بيننا

كان نصيب السيد المالك

ألف قنطار صفت من جيد القمح

وقست بقية العالق التبن

فنلت منها عشر قنطار

وكان القمح بالطين بالحصى مختلطاً

كان معي للسيد المالك خمسة من الجياد

إنها مثلي أنا عانت مرارة الحر وقسوة الإجهاد

فنلت حين نلت منه حصتي

كأحد الجياد. **(علي الخرم،1976، 54)**

يبدو من ألفاظ النص وتحديداً في البيت الأول أن الشاعر وصف قسمة الحصاد (بالعدل) حيث قسمت غلة الموسم فيما بينهم بالتساوي، هذا ما وجدناه في البيت الأول، ولكن عند قراءتنا لبقية أبيات القصيدة نجد عكس ذلك فلفظة (العدل) لم يقصد الشاعر معناها الظاهر وإنما عكسها تماما والدليل على ذلك ما وجدناه من معاني وألفاظ حملت معنى الجور والظلم لهذه القسمة، فنصيب السيد منها (ألف قنطار من جيد القمح) أما بقية الغلة فكانت عالقة بالتبن، فنال (منها عشر قنطار) هذا القمح لم يكن مختلطاً بالتبن فحسب بل بالطين والحصى أيضا، فهو مثل الجياد في أخذ النفاية وفي معاناة (الحر وقسوة الإجهاد)، فهو لا يفرق عنها بل إنه واحد منها، يشاركها مرارة التعب وقسوة العيش، وهذا ما قرره السيد عندما قسّم الغلة.

أسلوب الشاعر لم يخل من السخرية والتهكم على الأوضاع التي تعيشها الناس، وقد استخدم الشعراء أساليب الخفاء للتعبير عما يدور في خلدهم وللتفتيش عن معاناتهم ونقل أحاسيسهم للآخرين دون أن يعرضوا أنفسهم للأذى.

فالنصوص السابقة دلت على أن الحياة للأقوى، أما الضعيف فلا حياة له يداس بالأرجل وتسيطر عليه حالات الجوع والفقر والحرمان في زمن الطمع والأنانية فكل هذه الأشياء سببها الفقر ((إن الفقر يفقد الإنسان حيثياته وينسيه الشعور بالكرامة فيتذلل كالكلب حقيراً تافها أمام من يجود عليه بكسرة خبز تحفظ رمقه)) .(**عوض محمد الصالح، 2002 264**)

ويبرز استخدام النص الخفي في القضايا الاجتماعية والسياسية، بل تعد أساسها ومنبتها الأصلي. ذاك أن الشاعر يعبر عن قضايا أمته وما تتعرض له من آلام بطريقة الخفاء.

وللشاعر عبد الحميد بطاو قصيدة بعنوان ((لا حوار حول المسرح الواقعي)) بيّن مأساة الإنسان المعاصر وحثه على وضع حل :

ناموا يا سادة

فالصالة دافئة والليل شتائي النسمات

والمخرج... حين تأزم حدث القصة

أوقف باقي العرض ومات

والنوم كما قيل عباده

ولهذا ناموا يا سادة

سيدتي...

ما هذا الصمت

ما هذا الشيء اللزج الباهت مثل الموت

ما هذا الضغط

العسف الإرهاب الكبت.(**عبد الحميد بطاو،1997 15**)

يبدأ الشاعر في هذا المقطع من القصيدة باستخدام فعل الأمر (ناموا) حيث يأسر بمن يسميهم سادة- تهكما- بالنوم لأنهم أموات في صورة الحياة فهم كما قيل قبر يمشي، فقد أراد من لفظة (ناموا) استيقظوا ومن لفظة (سادة) الجمهور الذي يحكمه السادة ويعيش تحت وطأته، فقد استخدم تعبيراً غير مباشر في التعبير عن مقصده، وهو الثورة ضد المتحكمين في شؤون الناس وأمورهم ،وهم المخادعون الذين يخادعون الشعب بزخارف القول ليمضي إلى سبات عميق.

الشاعر ضاق ذرعا من الأوضاع التي أهلكت الناس ولهذا نراه استخدام الاستفهام ب(ما) الذي كرره ثلاث مرات مع اسم الإشارة (هذا)، (ما هذا الصمت، ما هذا الشيء، ما هذا الضغط) أسئلة واستفهامات تدور في ذهن الشاعر تعجبا من الصمت الذي يخيم على الناس بالرغم من حالة البؤس التي يعيشونها، إن حالة الظلم والظلام التي يحياها الناس جعلت الشاعر مصرا أن يأخذ على عاتقه مهمة تبليغهم برسالة وهي اليقظة بما يحيط بهم من سلب حقوقهم وضياع ممتلكاتهم ومن ثم ضياع مصيرهم الذي بات موغلا في ظلام دامس.

والشاعر عبد الباسط الدلال نجد نغمة الحزن تسيطر على نتاجه ، بل أن قصيدة القرية والصليب نراها تعج بالحزن والأسى يقول:

يا أخوتي

يا أخوة المصير

من ألف ألف عام

أحمل الصليب

ويكتب الإله من دمي الخضيب

ملحمة حروفها

ألم .. ألم .. ألم .(عبد الباسط الدلال،1993 54)

ينادي الشاعر إخوته الذين يشاركونه المصير نفسه (أخوة المصير) مستخدما أداة النداء (يا)، فقد نسب الأخوة في قوله (إخوتي) لنفسه وذلك عندما أضاف (يا) الملكية للفظة (إخوة) ليدل على مشاركتهم له في البؤس والشقاء، يطلب العون منهم عله يصل إلى الخلاص والتحرر مما يعانيه من ألفي عام (ألف ألف عام)، وهذه المعاناة سببها حمله الصليب الذي قصد منه معنى آخر، وهو الموت، وهذه إشارة إلى مأساة الشاعر، فكل الأجيال عانت الويلات، فهو من ألف ألف عام لا يحمل الصليب وإنما يحمل موته، الذي يصنع منه السادة مجدهم ومستقبلهم ويحصد هو الألم (ألم .. ألم .. ألم).

وقصيدة ((في انتظار جودو)) للشاعر محمد الشلطامي نرى استخدامه لمعنى الذي يحتاج من القارئ إلى رفض المعنى الظاهر لصالح المعنى الخفي :

إنها التاسعة الآن لماذا

لم تعد بعد من القبر

لماذا لم تعد ؟

وانتظرناك... انتظرناك طويلاً

بينما تنطفئ الأضواء في قلبي

ويمتد على الإسفلت مصباح(محمد الشلطامي،9،1976)

أن القارئ لهذه الأبيات سرعان ما يكتشف أن الشاعر أراد معنى آخر، فالمعروف أن ساكن القبر لا يعود، لأن الموت فناء ونهاية الدنيا للميت، ولكننا نستغرب سؤال الشاعر في الشطر الثاني (لماذا لم تعد بعد من القبر ؟ لماذا لم تعد ؟) وتكراره السؤال يدعو للاستغراب والتعجب، وكأن الشاعر يسأل

سؤال العارف أو ما يسمى عندنا في البلاغة العربية ب(تجاهل العارف)، ويؤكد على ذلك معرفتنا بأن انتظار (جودو) هو انتظار اللاتي، الشاعر من خلال قوله: (لماذا لم تعد من القبر ؟) يؤكد حقيقة مفادها اليأس، فالذين ينتظرون (جودو) وحدهم اليائسون الفاقدون للأمل من الاندماج في الحياة والعيش بحرية بعيدة عن حياة العبث.

ومنه ما نجده في قصيدة البلبل الأسير الشاعر راشد الزبير السنوسي يقول :

أفلت البلبل من ضيق القفص

وعلى أنغامه الكون رقص

طار لا يلوي إلى جنته

حيث محبوب يناجيه القصص

أفلت البلبل من بعد العذاب

فسرت في قلبه روح الشباب

ومضى حرا وما يقلقه

غير ما يكمن في طي السحاب

يتحاشى الليل يخشى المطرا

يعشق الشمس يناجي القمرا

يرهب البازى إذا ما ظهرا

أو على غصن بدا منتظرا

فهو لا يعرف من هذي الحياة

غير أن يبطش أو يؤذي سواه

لا يراعي غير من يرهبه

أفلت البلبل لكن القدر

وضع الصقر على درب المفر

فلتقاه ولم يجد الحذر...

و اكفهر الجو إذ لاح الخطر

سأل البلبل فيم الاعتداء

يا أخا الطير أما نحن سواء

مسني الضر على أرض الشقاء

وأنا الآن طليق في الفضاء

لا أريد اليوم أسرا من جديد

بعد أن قلت من قيد الحديد

وحياتي عشقت حر النشيد. (**راشد الزبير السنوسي، 2008 ، 459**)

القصيدة تشير إلى عادة سيئة وخلق دنيء، هذا الخلق تجسد في شخصيتي البلبل والصقر، فمن خلالهما نرى القوة والضعف حيث غياب العدل والمساواة في ذلك الوقت، ومن هذا نجد التناقص للأخلاق الاجتماعية؛ لأن العدل والمساواة أساس الحياة في كل وقت وحين لا يختص بهما زمن دون غيره.

القصيدة ترمز إلى معاناة مرّ بها شخص ما، من قبل قوى جبارة متمردة، لا تعرف الحوار با البطش بالآخرين وإدخالهم في حيز السيطرة، حيث لا ضوء ولا هواء بل كبت ومعاناة.

ولننظر ذلك في مقاطع القصيدة؛ حيث وجود انطباعات متناقضة معاكسة للمبادئ الاجتماعية، والتي بدورها أفضت إلى وجود ازدواجية واضحة الأبعاد.

يعرض الشاعر عبر أبيات القصيدة معان تدور حول بلبل كان سجيناً، ثم أفلت هذا البلبل من القفص فأصبح حراً طليقا غير عابئ بالأعاصير، ولما يواجه من مشقات أثناء المسير، يعشق النور يناجي القمر، يرهب البازي إذا ظهر، غير أن البلبل خرج بشكل غير الشكل الذي دخل فيه القفص، فالتناقض الذي طرأ على سلوك البلبل كان سببه الكبت الداخلي لمشاعر دفينة أملتها القسوة التي تلقاها داخل القفص، فالكبت يعقبه انفجار وهذا ما حدث مع البلبل.

والملاحظ أن الازدواجية الناتجة حدثت من خلال التضاد بين حدثين تعرض لهما البلبل كان يحيا حياة بريئة لا يعرف الشر طريقا له، وعندما دخل القفص انعكست المآسي والجراح على سلوكه؛ فخرج ضحية هذا التضاد الاجتماعي، نرى ذلك من خلال العبارات (افلت البلبل من ضيق القفص، من بعد العذاب، بعد أن كان ينعم بالحياة، سرت في قلبه روح الشباب، مضى حراً، لا يعرف من هذي الحياة غير أن يبطش و يؤذي سواه).

هذه الازدواجية القائمة من خلال التضاد بين العبارات السابقة تجعل البلبل يعيش في موقف معلّق بين موقفين من الحياة، الأول قبل دخوله القفص، والثاني بعد خروجه منه، هذا الشعور هو الذي نجحت الخفاء في تصويره.

الأبيات تعرض حالة البلبل وقت خروجه من القفص، وسرعان ما ينقلب الموقف؛ إذ تشير العبارات إلى معنى معين مترقب، وهو معنى الحرية والانعتاق من عسف وظلم القفص، لكن النتيجة فجأة تكون مخيبة للآمال، إذ ينتهي الحدث بمعنى مخالف تماما لاتجاه عمل منطوق العبارة، فينقلب الموقف من إيجابي إلى سلبي حيث التقى بعدوه الصقر إذ لم يجد الحذر، وكان من أثر ذلك أن

(يكفهر الجو) كناية عبّر بها الشاعر عن عودة الخطر، الخطر الذي لاح بظهور الصقر، فلم يكن إزاء البلبل إلا أن يجد طريقة يخلص بها نفسه أمام هذا المنزلق الخطير، فلجأ إلى الحوار ليرد به كيد الصقر في صورة الاستعطاف، لكن ذلك لم يجد نفعا، بل ظل الصقر متمسكا بما هو عليه من عناده وكبره وجبروته.

الحوار بدأ بسؤال البلبل مستخدما ما الاستفهامية المقرونة بفاء الجر(فيم الاعتداء) السؤال يفضي إلى الاستعطاف والطلب، ثم يمضي يناشده بالأخوة (يا أخا الطير أما نحن سواء) يناديه يذكره بأن جنسهما واحد، مستخدما لفظة (الطير) ليدل على ذلك الجنس.

يسير الطير في حواره على ذات النسق؛ إذ يبدأ بتعداد المآسي والمشاق التي صادفته أثناء حياته (مسني الضر على أرض الشقاء، لا أريد اليوم أسرا من جديد، بعد أن أفلت من قيد الحديد، عشقت حر النشيد، فدع الأنغام تسري في الوجود).

المعاناة التي مرّ بها البلبل واضحة المدى، فمن خلال العبارات السابقة نلمح الكناية في قوله (مسني الضر) التي كنى بها عن معاناته، وهو من أجل ذلك يرفض العودة لحياة الأسر (لا أريد) مستخدما لا النافية مع الفعل (أريد) ليؤكد دلالة الرفض.

نتائج البحث

1 الانتماء الوطني نجده راسخا وبوضوح عند شعراء النص الخفي.

2 أن هؤلاء الشعراء تناولوا قضايا خارج بلدانهم وأوطانهم وتجاوزتها إلى قضايا أمتهم لأن الإنسانية من سماتهم.

3 النص الخفي يعتمد على الازدواجية، فهو مفهوم عقلي يرفض الظاهر ويقبل الباطن الذي هو هدف الشاعر.

4 استخدام الشاعر للخفاء مكن الباحث من الكشف عن نفسية الشاعر ومعرفة شعوره نحو قضايا أمته.

5 ظهرت بعض القيم الاجتماعية السيئة وما فيها من فساد، ورفض الشاعر لذلك وانعكاس هذا الرفض على شعره.

6 لجوء الشاعر لهذا الأسلوب ساعده وبشكل كبير في خدمة الناس.

7 استخدام أسلوب الرمز في بعض الاحيان، وذلك كي يجنب الشاعرنفسه المسألة، لأن التصريح يشكل خطرا من قبل القوة الظالمة.

8 استخدام الشاعر هذا الأسلوب جاء في الأشعار التي اتسمت بالوطنية والإنسانية والذاتية حيث غياب العدل وتفشي الظلم والجور مما أدى إلى معاناة الناس علّه يجد حلا لها ويبعث في الناس الأمل والشجاعة للثورة على هذه الأوضاع.

9 إن الاتجاه الإنساني عند هؤلاء الشعراء مبعثه الالتزام الديني.

المراجع

1 . إبراهيم طوقان ، بيروت، دار المسيرة ،1984

2 . خالد سليمان،المفارقة والأدب دراسات في النظرية والتطبيق ،ط 15، عمان،الأردن، دار الشروق للنشر والتوزيع ، 1991.

3.راشد الزبير السنوسي ، رباعية حنظلة ، ط1 ،مطابع الثورة.

4 – راشدالزبير السنوسي ، قيثارة الخلود ، ط1 ، بنغازي ، منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والأعلام ، 2008

5- راشد الزبير السنوسي ، ديوان الخروج من ثقب الإبرة ، ط1 ، بنغازي ، منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والأعلام ، 2008.

6 – سيدني فنكلستينن، الواقعية في الفن "السلسلة الفلسفية" ترجمة: عبد المنعم مجاهد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1 ، 1981.

7- عبد الباسط الدلال، ديوان فسيفساء أندلسية، ط1، دار الفاتح، 1993.

8-عبد الحميد بطاو ، ديوان عندما صمت المغني ، ط1 ، الدار العربية للكتاب ، 1997.

9- عبد المجيد القمودي ، ديوان قصائد بين يدي وطني ، ط1 ، الدار الجماهيرية ، 1982 .

10-علي الخرم ، ديوان في انتظار الإنسان ،ط1 ، درنة ، دار البكوش ، 1976 .

11-علي الفزاني ، العمال الشعرية الكاملة ، ط1 ، المنشأة العامة لنشر والتوزيع والإعلان ، 1983

12 . عوض محمد الصالح ، الشعر الحديث في ليبيا دراسة في اتجاهاته وخصائصه ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، 2002 .

13 – محمد زكي العشماوي، الأدب وقيم الحياة المعاصرة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ط ، 1980

14- محمد الشلطامي ديوان اناشيد عن الموت والحب والحرية ، ط1 ، دار الحقيقة ، 1976 .

15. محمد الشلطامي ، ديوان قصائد على الفرح ، ط1 ، بنغازي ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، 2002 .

16-محمد عياد المغبوب ، ديوان رسم بلون الاشتهاء ،ط1 ، مصراته الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، 2000

17-مفتاح العماري ، ديوان منازل الريح والشوارد والأتاد، ط1 ، سرت ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، 1995

18 . محمد كاشيك ، جماليات النص الخفي ، بيرم التونسي ، فواد حداد ، صلاح جاهين ، ط1 ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2010.

19- نصر بن سيّار،جمع وتحقيق عبدالله الخطيب ،نشر مطبعة شفيق ،بغداد، ط2011،1.